ملامح نظريّة التّواصل اللّغويّ في اللّسانيّات الغربيّة
-الاتّجاه التّداوليّ أنموذجا-

Features of the theory of linguistic communication in Western linguistics -Pragmatism as a model-

د. خالد حميدات♥

تاريخ الاستلام: 14-09-2023 تاريخ القبــول: 22-01-2024

ملخّص: يعدّ التّواصل اللّغويّ نشاطا اجتماعيّا يجري بين طرفين أو أكثر ويكون منظّما حسب مقتضيات اللّغة المستعملة فيه، وذلك لتنسيق علاقات النّاس. وهو العمليّة التي بها يتفاعل المرسلون والمستقبلون للرّسائل، في سياقات اجتماعيّة معيّنة. وإنّ بحثنا عن البدايات الأولى لنظريّة التّواصل اللّغويّ في العصر الحديث يقودنا -ولا شكّ-إلى أعمال لغويّين أفذاذ، نجد من خلال تأمّلنا لأعمالهم آراءً وأفكارا مهمّة عن التّواصل، كانت اللّبنات الأساسيّة التي جعلت التّواصل علما قائما بذاته.

ويهدف البحث إلى تبيان بعض ملامح نظريّة التّواصل اللّغويّ عند أصحاب الاتّجاه التّداوليّ، الذي يعدّ واحدا من أهمّ الاتّجاهات التي أسهمت في تأسيس هذه النّظريّة، وحاولت تفسير التّواصل، وبلغت فيه ما لم تبلغه غيرها وأفرزت

♥جامعة البليدة 02، لونيسي علي، الجزائر، البريد الإلكتروني: ILIYIN@GMAIL.COM (المؤلّف المرسل).

مفهوم الكفاية التّواصليّة الذي استفادت منه حقول معرفيّة كثيرة أهمّها حقل تعليميّة اللّغات.

كلمات مفتاحيّة: التّواصل اللّغويّ؛ الاتّجاه التّداوليّ؛ الكفاية التّواصليّة.

Abstract: Linguistic communication is a social activity between two or more parties, organized according to the language used, to coordinate people's relationships. It is the process by which messengers and receivers interact in certain social contexts. Our search for the earliest beginnings of modern-day linguistic communication leads us, undoubtedly, to fetishized linguistic work. Reflecting on their work with important views and ideas about communication, the main building blocks that made communication stand.

This paper aims to ingrain the theory of linguistic communication among pragmatic orientators, which is one of the most important trends that has contributed to the establishment of this analogy, attempted to explain communication, reached what trends have not attained before, and spawned the concept of communicative adequacy that has benefited many of its most important fields of education.

Keywords: linguistic communication; pragmatic direction; communication sufficiency.

1. مقدّمة: يعدّ التّواصل جوهر العلاقات الإنسانيّة، وهو من أقدم أشكال النّشاط الإنسانيّ؛ ذلك أنّ البشر يفعلونه كلّ يوم، ليعبّروا عن ذواتهم واحتياجاتهم، فبدونه تتعطّل مصالحهم، وتنقطع علاقاتهم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وتتوقف حضارتهم، إذ إنّه أصل في بناء الحضارة، وهو "أعجب شؤون الإنسان قاطبة"[1]؛ لأنّه "فطرةٌ فطر الله النّاس عليها، وسنّة كونيّة لا

تنمحي، ولا تتحول، ولا تتبدّل، وضرورة تاريخيّة لا يتوقّف حراكها، ولا تتقطّع مساراتها"[2].

وقد كان التّواصل في بداية الحياة بسيطا وسهلا كبساطة الحياة وسهولتها ولأنّ الإنسان اجتماعيّ وتواصليّ بطبعه، يميل إلى الاندفاع إلى غيره والتّعايش معهم، وينفر من الفرديّة، ويتجنّب العزلة، فإنّ النّاس كانوا يتواصلون في مناطق جغرافيّة محدودة، وفي حدود بشريّة ضيّقة، من أجل تحقيق غايات بسيطة، ثمّ تطوّر التّواصل مع ظهور الحضارات وتطوّرها، وارتقاء الفكر الإنسانيّ، وقد جعلت الحاجة الإنسانَ إليه منذ خَلقه يبتكر في كلّ حين آلياتٍ وأساليبَ جديدةً. فالتّواصل إذًا: "حالة اجتماعيّة تتحقّق من خلال أنساق متعدّدة، ينسج الأفراد داخلها سلسلة من العلاقات من طبائع مختلفة: اللّغة والنّسب، والجوار، والتّصاهر، والحاجات الاقتصاديّة"[3].

لم يتطوّر (علم التّواصل) –كعلم نظريّ–في العصور الوسطى في أوربا، بل بدأت الاختراعات الأولى لوسائل التّواصل عندما خرجت للوجود أوّل مطبعة في العالم (في ألمانيا)، حين ظهر أوّل كتاب مطبوع في العالم عام 1455م. ثمّ اختُرع الرّاديو عام 1886م في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وبعد ظهور الصّحافة والرّاديو، بدأ علم التّواصل يتطوّر ويتضمّن أفكارا جديدة مثل: التّواصل غير المباشر، التّواصل الجماهيري، التّواصل خارج الحدود. ثمّ وُلدت السّينما عام 1895م في فرنسا، ومن بعدها بدأت المحاولات الأولى لاختراع التّلفاز سنة 1923م، تزامنا في ألمانيا والولايات المتّحدة الأمريكيّة وبريطانيا إلى أن طُرِح التّلفاز للجمهور سنة 1941م، في أمريكا، ثمّ في أوروبا خلال الخمسينيّات، وإثر ذلك ظهرت أفكار جديدة في علم الإعلام، مثل: التّواصل عبر القارّات، نظريّات التّواصل الإعلاميّ، التّدفّق الإعلاميّ، التّشويش

الإعلاميّ. وفي سنة 1969م ظهرت الإنترنت[4]، ليتسارع بعدها تطوّر التّواصل بمختلف أشكاله شيئا فشيئا، ليصل إلى ما نشهده في عصرنا الحديث.

وهذا ما جعل التّواصل في بحث دائم عن سماته العلميّة، بالاتّكاء على هذه التّخصّصات، قليلا أو كثيرا، وهو ما تسبّب في تشتّت معرفيّ كبير، أشار إليه كلّ من (أرمان ماتلار، وميشال ماتلار: ArmanMatlar, Michel Matlar)، في كتابهما (تاريخ نظريّة الاتّصال)؛ إذ ورد فيه: "يسعى هذا الكتاب إلى تعريف القارئ بالتّعدّديّة والانشطارات التي يعرفها هذا الحقل المعرفيّ، الذي يتموقع تاريخيّا بين الشّبكات المادّيّة وغير المادّيّة، بين البيولوجيّ والاجتماعيّ بين الطّبيعة والثّقافة، بين الدّراسات الشّاملة والمحدودة، بين القرية والكرة الأرضيّة، بين التّفاعل الاجتماعيّ والنّسق الاجتماعيّ، بين الفرد والمجتمع، بين حرّيّة الاختيار والحتميّات الاجتماعيّة. فتاريخ نظريّات التّواصل هو تاريخ هذه التّقاطعات..."[5]. هذا التّشتّت سبّب بدوره اختلافا بين العلماء والباحثين في ضبط مفاهيم نظريّة التّواصل، وما زاد ذلك صعوبةً تعدّدُ المدارس التي حاولت مقاربة هذه النّظريّة.

وقد تناول نظريّةَ التّواصل عدّةُ مدارس فلسفيّة ونفسيّة واجتماعيّة ولسانيّة. ولعلّ أهمّ هذه الدّراسات التّواصليّة هي تلك التي قامت بها المدارس اللّسانيّة والتي تمثّلت في اتّجاهين بارزين، تنضوي تحت كلّ منهما مدارسُ عدّة، هما: الاتّجاه البنويّ، والاتّجاه التّداوليّ. وقد تبيّن من اطّلاعنا على الكثير من البحوث أنّها قلّما فصلت بين هذين الاتّجاهين؛ إذ لم تجعل حدودا واضحة بينهما.

غير أنّ ما ننبّه إليه ابتداء أنّ هذه الدّراسات كلَّها تشترك عموما في محاولة تحديد فعل التّواصل اللّغويّ، وكيفيّات حدوثه، وما يستعمله المرسل من إستراتيجيّات في تواصله مع غيره.

ويتحدّد بحثنا في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

–ما المقصود بالتّواصل اللّغويّ؟

–ما مدى إسهام الدّارسين من الغرب في تأسيس نظريّة التّواصل اللّغويّ بمفهومها الحديث؟

–ما هي أهمّ جهود التّداوليّين في مجال التّواصل اللّغويّ التي أسفرت عن انبثاق ما يُعرف بالكفاية التّواصليّة؟

– ما المقصود بالكفاية التّواصليّة؟ وكيف استفاد منها مجال تعليميّة اللّغات.

وقد سعى هذا البحث إلى الإجابة عن هذه الأسئلة، انطلاقا من معالجة الآتي:

– في مفهوم التّواصل اللّغويّ؛

– نظريّة التّواصل اللّغويّ عند التّداوليّين؛

– الكفاية التّواصليّة؛ مفهومها وخصائصها ومكوّناتها.

2. في مفهوم التّواصل اللّغويّ: إنّ التّواصل بين الأفراد والجماعات هو من أهمّ أسباب استمرار حياتهم وبقائها، فمن المتعذّر أن يعيش الإنسان بمنأى عن محيطه وبيئته وبني جنسه. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتَعارفوا**﴾ [الحجرات13]؛ هذه الآية تجعل من التّواصل عمليّة للتّعارف والتّفاعل بين البشر قاطبة، لا يحدّها مكان، ولا يقتصر على شعب أو قبيلة بعينها، فالتّواصل هو "الفاعليّة الوحيدة التي في إمكانها إعادة ربط الصّلة بين أطراف هذا العالم المتقطّع الأوصال...الذي انقطعت صلته الحميميّة بالإنسان"[6].

ولعلّ أهمّ تطوّر طرأ على التّواصل الإنسانيّ هو اكتسابُه صفةَ العالميّة؛ فقد كانت بدايته بسيطة؛ بين الإنسان وزوجته، ومع أبنائه وأفراد أسرته، لتتّسع دائرته مع مرور الزّمن إلى التّواصل في نطاق القبيلة والقرية والمجتمع، ثمّ

أصبح التّواصل اليوم عالميّا، تشترك فيه جنسيّات مختلفة، وساعد في ذلك الدّور الكبير الذي قامت به وسائل الإعلام والتّكنولوجيا والاتّصال.

وللإنسان القدرة على التّواصل حتّى مع الحيوانات، فنحن أحيانا نصدر أصواتا تجعل بعض الحيوانات تقترب منّا وتتفاعل معنا، لكنّ هذا النّوع من التّواصل يختلف عن تواصل الإنسان مع الإنسان الذي يتميّز بوُجُود كفاءة بين أطراف التّواصل.

وتتميّز عمليّة التواصل لدى الإنسان بأنّها "واعية وذات مسعى حركيّ اجتهاديّ دؤوب، ليست حركة أعجمية رتيبة، بل هي عمليّة في قمّة الوعي الإنسانيّ، تجمع بين النّظر والعمل وفق إستراتيجيّة تربط الهدف بأصوله وبالمناهج والوسائل المؤدّية إليه، وتجمع بين أبعاد الإنسان في الزّمان، فتحفظ الماضي في الحاضر وتخترق المستقبل"[7].

وإنّ نجاح الفرد في حياته، وحصولَه على مكانة في مجتمعه، وتأثيرَه الفعّال فيه وفي أفراده، أمورٌ متوقّفة على مدى نجاح تواصله معهم، ومعرفةِ سُبُل نقل رسائله المتنوّعة إليهم، ومحاولتِه ربط جسور الحوار والتّفاعل والتّبادل معهم. وفي هذا السّياق يرى (جون ديوي **John Dewey**) أنّ وجود المجتمع واستمراريّته متوقّفان على النّقل الشّامل للعادات والأفكار والمشاعر من جيل إلى آخر، وأنّ استمراريّة المجتمع تحدث من خلال نقل الخبرات والتّواصل بين الأفراد، فالنّاس يعيشون في جماعةٍ بفضل ما يشتركون فيه من أهداف وعقائد وأماني ومعلومات... إلخ، وهم يكتسبون ذلك من خلال التّواصل[8]، وهذا ما "سيزيد من فرص الفرد في البقاء والنّجاح والتّحكّم في الظّروف المختلفة المحيطة به، في حين أنّ عدم القدرة على التّواصل مع الغير تُعدّ نقصًا اجتماعيّا وسيكولوجيّا خطيرا"[9].

وإنّ البحث في نشأة اللّغة، وظهور الكلام وبداية التّواصل لدى الإنسان قد لا يفيدنا كثيرا في دراسة التّواصل اللّغويّ، خاصّة وأنّ دراسة التّواصل البشريّ هي دراسةٌ علميّةٌ تعتمد على الملاحظة والتّجريب، إلّا أنّ ما ندين به –وهو ما جاء في القرآن الكريم وتداوله أهل الكتاب–أنّ أوّل إنسان –آدم عليه السّلام–قد تكلّم وتواصل مع زوجه ومع أبنائه، وهذا ما يؤكّد أنّ التّواصل طبيعة وسجيّة وأنّه "ضرورة إنسانيّة واجتماعيّة. و[أنّ] حاجة الإنسان إلى التّواصل لا تقلّ عن حاجته للأمن والغذاء والكساء والمأوى، ولأنّ الإنسان كائن اجتماعيّ تواصليّ؛ فإنّه لا يمكنه العيش في معزل عن المجتمع"[10].

ولعلّ أصعب الدّراسات هي تلك المتعلّقة بالسّلوك البشريّ، وسبب ذلك تشابكُ العديد من الجوانب النّفسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة فيه، و"عمليّة التّواصل تتضمّن كلّ هذه الجوانب، لذلك نجدها من بين أعقد العمليّات النّفسيّة–الاجتماعيّة التي يقوم بها الفرد، وتتمّ بينه وبين الجماعة، أو بينه وبين أفراد الجماعات الأخرى"[11].

وقد ظهرت نظريّات عديدة، حاول أصحابُها تفسير التّواصل البشريّ استفادت بعضها من بعض، وسنعرض لواحدة منها، هي تلك التي تبنّاها أصحاب الاتّجاه التّداوليّ.

وبالنّظر إلى أنّ اللّغة تعدّ أهمّ آليّات التّواصل وتبادل المعارف بين البشر فقد أصبح كلّ تواصل بينهم يُسمّى تواصلا لغويّا، وعلى الرّغم من ذلك، يظلّ التّواصل حقلا معرفيّا واسعا تحتوِشُه العديد من التّخصّصات وحقول المعرفة (اللّغويّة، التّربويّة، الإعلاميّة، النّفسيّة، الاجتماعيّة، الفلسفيّة...)، لذا فقد اعترض المشتغلين والباحثين صعوبةٌ كبيرة عند محاولتهم وضع نظرّية واحدة شاملة للتّواصل، فكان من المتعذّر حصره داخل مجال محدّد؛ "فاللّسانيّ ينظر

إلى اللّغة، وعالم النّفس إلى الذّات المتحدّثة، وعالم الاجتماع إلى الجماعة النّاطقة، والمنطقيّ إلى المرجع، والتّقنيّ إلى القناة...إلخ"[12].

ومن خلال اطّلاعنا على العديد من تعريفات التّواصل، فإنّا نعرّفه بأنّه:

عمليّة تبادل للمعلومات والأفكار والعواطف والخبرات والمهارات، وكلّ ما يصدر عن الإنسان ويقوم به، بهدف التّفاعل والتأّثير في غيره، والتّفاهم معهم أو إقناعهم، وهو يحدث بين شخصين على الأقلّ، ويبدأ عندما يرغب شخص ما في التّواصل مع غيره، ممّن لديهم رغبة واستعداد للتّواصل، فيترجم رسالته في رموز مستعملا اللّغة الشّفويّة أو المكتوبة أو الوسائل غير اللّفظيّة، أو يجمع بينها، معتمدا على وسائل بسيطة، أو على وسائل متطوّرة. ليقوم المرسل إليه بعد ذلك بفكّ تشفير الرّسالة وفهمها، وقد تتوقّف عمليّة التّواصل هنا، أو قد تبدأ من جديد حين يصبح المرسل إليه مرسِلا.

وهو عمليّة شاملة واسعة، لا تقتصر على مجال بعينه، أو فئة بعينها، أو على وسيلة دون غيرها، لذا يُباح استخدام كلّ ما من شأنه إيصالُ ما يريد الباثّ إيصاله، على أن يتقيّد ببعض الشّروط والأخلاقيّات التي توضّح رسالته أكثر، وتحول دون نفور المتلقّي/ المتلقّين منه، وعليه أن يراعي الظّروف المحيطة بالتّواصل.

3. نظريّة التّواصل اللّغويّ عند التّداوليّين/الاتّجاه التّداوليّ: استدعت طبيعة التّواصل اللّغويّ دراسةَ الباحثين اللّغةَ أثناء الاستعمال، ودراسةَ السّياق الذي يجري فيه هذا التّواصل، ومعرفة مكوّناته ودور كلّ واحد منها "في تشكيل الخطاب، وتأويله، وكذلك دراسة افتراضات المرسل عند إنتاج خطابه ووسائلَه وأهدافَه ومقاصدَه، أو التّنبّؤ بها، ومعرفة أنواع السّياق...، وإدراك تأثير كلّ منها على توليد الخطاب والضّوابط لكلّ ذلك"[13]. وهذا ما أتاحه الدّرس التّداوليّ الحديث.

و"تقع التّداوليّة –كأكثر الدّروس حيويّة –في مفترق طرق الأبحاث الفلسفيّة واللّسانيّة"[14]، وتُعرّف بأنّها "دراسة استعمال اللّغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابيّة"[15]، ويعرّفها (فان دايك Van Dijk) بأنّها "دراسة العلاقات بين الرّموز والعلامات والمستعملين لها"[16]، وتتطرّق التّداوليّة في نظر (فرانسيس جاك Francis Jaques) إلى اللّغة كظاهرة خطابيّة وتواصليّة واجتماعيّة معا[17].

وقد ظهرت التّداوليّة كدرس جديد، أو كدروس جديدة؛ لأنّ ثمّة تداوليّات متعدّدة لا تداوليّة واحدة، يوحّدها العنصر الشّكليّ، لممارسة سلطة المعرفة والاعتقاد، في إطار إستراتيجيّات، توجّه النّقاش والحوار، ما دام ارتباط الحقيقة قائما على حركة التّواصل واستهداف المعنى...، وتأتي أهمّيّة التّداوليّة من هنا في كونها تحاول الإجابة عن العديد من الأسئلة، من قبيل:

–من يتكلّم، وإلى من يتكلّم؟

–ماذا نقول بالضّبط حين نتكلّم؟

–ما هو مصدر التّشويش والإيضاح؟

–كيف نتكلّم بشيء، ونقصد شيئا آخر؟[18].

ولم تتبلور التّداوليّة كنظريّة للتّواصل إلّا باستفادتها من نظرّيات ومرجعيّات سابقة اهتمّت بدراسة اللّغة، فقد استفادت كثيرا من السّيميائيّة، ومصداق ذلك قول (شارلز موريس Charles Morris): "التّداوليّة جزء من السّيميائيّة، التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعمليها. وهذا تعريف واسع يتعدّى المجال اللّسانيّ إلى السّيميائيّ، والمجال الإنسانيّ إلى الحيوانيّ والآليّ"[19].

وقد استقرّ في ذهن (موريس) أنّ التّداوليّة تدرس ضمائر التّكلّم والخطاب وظرفي الزّمان والمكان، والتّعابير التي تستقي دلالاتها من معطيات تكون جزئيّا خارج اللّغة نفسِها، أي من السّياق الذي يجري فيه التّواصل[20].

وما جعل التّداوليّة أصلح النّظريّات لدراسة التّواصل اقترابُها من الواقع وكونُها "تكاد تستلهم وجودها من المنطق؛ إذ تُستنبَطُ أساسا من فلسفة اللّغة ونظريّة أفعال الكلام بوجه خاصّ، وكذلك من ضروب تحليل الحوار، ومن الاختلافات الثّقافيّة في كلّ تفاعل كلاميّ، كما هو ملاحظ في العلوم الاجتماعيّة"[21].

والتّداوليّة ليست علما لغويّا محضا، بالمعنى التّقليدي، يكتفي بدراسة البُنى اللّغويّة ووصفها وتفسيرها، متوقّفا عند حدودها وأشكالها الظّاهرة، ولكنّها علم جديد للتّواصل، يدرس الظّواهر اللّغويّة في مجال الاستعمال[22]. و"نظرا إلى أنّ اللّغة لا تظهر خصائصُها إلّا من خلال المنجز التلفّظيّ في سياق معيّن، فقد اتّضح عدم كفاية الدّراسة الشّكليّة، سواء أكان ذلك من حيث التّركيب، أم من حيث الدّلالة"[23].

ويتجلّى هنا الفرقُ جليّا بين الاتّجاه البِنويّ والاتّجاه التّداوليّ، في أنّ الأوّل لا يعتدّ بما هو خارج نظام اللّغة، ولا يعترفُ بتأثيره في بنيتها الدّاخليّة، في حين يعتدّ الثّاني بسياق الإنتاج وأثره في بنية الخطاب التّواصليّ[24].

وبهذا قد تجاوزت التّداوليّة الكثير ممّا استعصى على البِنويّة، من خلال انفتاحها على السّياقات والمقامات الحيّة أثناء التّواصل بين مستعملي اللّغة واهتمّت بدراسة اللّغة ضمن المجتمع.

وارتباط التّواصل اللّغويّ بالإنسان الذي تحْتوشُه أحوال كثيرة عند تواصله يقتضي اتّجاها جديدا تتقاطع فيه مختلف العلوم التي تدرس الإنسان، هو الاتّجاه التّداوليّ، إذ إنّ التّداوليّة تعدّ "مفترق طرق لتداخل اختصاصات اللّسانيّين، المناطقة، السّيميائيّين، الفلاسفة، السّيكولوجيّين، والسّوسيولوجيّين. فنظام التّقاطعات هو نظام للالتقاءات وللافتراقات"[25].

4-مصطلح الكفاية التّواصلّية:

1.4. في مفهوم الكفاية التّواصليّة: إنّ من أهمّ سمات الاتّجاه التّداوليّ رصدَ خصائصِ بنية اللّغة الطّبيعيّة، وربطَها بوظيفتها في التّواصل، والتّوصّل إلى أنّ قدرة طرفي التّواصل تكمن في معرفة القواعد العامّة التي تمكّنهما من تحقيق أهداف التّواصل، وتأويل الخطاب، وتدخل ضمنها القواعد اللّغويّة في مستوياتها المختلفة[26].

ولقد ركّز التّداوليّون على التّواصل اللّغويّ، وقدرة أطرافه على الفهم المتبادل، واهتمّوا بتوضيح الخصائص الدّلاليّة للجمل، فلا بدّ عندهم من أن "تفي الجملة بالشّروط التي تمكّن من الكفاية التّواصليّة"[27]، فتجاوزوا بذلك نظرة التّوليديّين.

حين أدرك (ديل هايمز Dell Hymes) قصورَ دراسة الكفاية اللّغويّة عن الإحاطة بالتّواصل اللّغويّ واكتشاف خصائصه، طوّر مفهومَها إلى مفهوم آخر أكثر حيويّة، وأكثر خدمة لعمليّة التّواصل اللّغويّ، هو مفهوم الكفاية التّواصليّة ويقصد بها "ذلك العنصر الذي نستطيع به أن ننقل الرّسائل، ونفسّرها ونتفاوض مع الآخرين في سياقات محدّدة"[28]، وتعني كذلك "القدرة على نقل رسالة، أو توصيل معنى معيّن، والجمع بكفاءة بين معرفة القواعد اللّغويّة، وبين القواعد الاجتماعيّة في عمليّة التّفاعل بين الأفراد"[29]؛ أي إنّ معرفة النّسق اللّغويّ لا تكفي لتحقيق تواصل فعّال، بل لا بدّ من معرفة كيفيّات استخدام اللّغة وتوظيفها في سياقات اجتماعيّة مختلفة، و"إنشاء علاقات تواصليّة مع الآخرين، والنّجاح فيها" ،[30] والقدرة على تنويع الكلام، والإشارات، والإيماءات، وكلّ وسائل التّواصل اللّغويّ، حسب السّياق.

فالكفاية التّواصليّة تمكّن المتواصلين "من إدراك أوجه الرّبط بين المكوّنات اللّغويّة، وما يفرزه السّياق من وظائف اجتماعيّة، وتمكّن من فهم الخطاب

وتأويله، بتوظيف المعارف السّابقة، وربطها بقدرات لغويّة، ومنطقيّة وخصائص ما وراء–لسانيّة"[31].

وبتعبير آخر: تعني الكفاية التّواصليّة أن "يعرف الفرد بدقة متى يتكلّم (When?)، ومتى لا ينبغي أن يتكلّم (When not?)، وماذا يتكلّم حوله (What?)، ومع من(With whom?)، ومتى ?When، وأين ?Where وبأيّ طريقة كان أسلوب الحديث"[32].

ونلخّص في هذا السّياق التّفريق الهامّ الذي قامت به الباحثة (كربرايت أوراكيوني(KERBRAT ORECHIONI) بين كفايتي (تشومسكي) و(هايمز)[33]:

جدول (04): الفرق بين بين كفايتي تشومسكي وهايمز

الكفاية عند تشومسكي	الكفاية عند هايمز
– موضوع التّحليل اللّسانيّ يقف عند حدود الجملة.	– يجب أن يتجاوز التّحليل اللّسانيّ الجملة إلى الخطاب.
– موضوع البحث اللّسانيّ هو كفاية المتكلّم/ المستمع المثاليّ.	– موضوع البحث اللّسانيّ هو قدرة متكلّم/ مستمع واقعيّ، له وجود في قلب الحياة الاجتماعيّة.
– الكفاية واحدة لدى جميع أعضاء الجماعة اللّغويّة، إنّها ذات طابع كلّيّ.	– القدرة تتغيّر من فرد إلى آخر، ومن جماعة لغويّة إلى أخرى.
– الكفاية تمكّن من إنتاج الجمل النّحويّة المجرّدة وتأويلها.	– القدرة تمكّن من إنتاج وتأويل ملفوظات في سياقات محدّدة.
– الإنجاز لا يعكس طبيعة الكفاية المجرّدة إلا بصورة ناقصة جدا.	– كل وقائع الإنجاز يجب ردّها إلى الكفاية التي تجلّيها.

– وظيفة اللّغة الأساسيّة هي التّعبير عن الفكر، أو هي مرآة للعقل.	– اللّغة ممارسة اجتماعيّة، وظيفتها التّواصل.

04-02-خصائص الكفاية التّواصليّة:

انطلاقا ممّا سبق يمكننا أن نحدّد للكفاية التّواصليّة الخصائصَ الآتية:

✓ الكفاية التّواصليّة مفهوم متحرّك وليس ساكنا؛ إذ إنّها تعتمد على تبادل المعنى بين فردين أو أكثر، فهي علاقة بين أطراف التّواصل أكثر من أن تكون تواصلا ذاتيّا بين المرء ونفسه[34]؛ أي إنّها ليست مقتصرة على الفرد منعزلا عن الآخرين، ولا يمكن فحصها إلّا عند تحقّقها علانية، في أوجز صورة بين شخصين في حالة خطاب[35]؛

✓ تصلح الكفاية التّواصلية لجميع أشكال التّواصل اللّفظيّة وغير اللّفظيّة ومختلف نُظُم الرّموز؛

✓ تتحدّد الكفاية التّواصليّة من خلال السّياق. لذا، يتطلّب التّواصل اللّغويّ القدرة على اختيار اللّغة والأسلوب المناسبين للمواقف المختلفة التي يحدُث فيها، وللأطراف المشاركة فيه؛

✓ للكفاية التّواصليّة درجات؛ فهي نسبيّة وليست مطلقة[36]، لذلك تختلف من شخص إلى آخر، حسب قدرته على دمج مكوناتها، والتّحكّم فيها؛

✓ يشتمل مصطلح الكفاية التّواصليّة على مفهومين رئيسيّين، هما: المناسبة (Appropriateness)، والفعاليّة (Effectiveness)[37]. والمعيار الأساسيّ لمعرفة نجاح التّواصل أو فشله، هو مدى مناسبته وفعاليّته، فقد تتمّ عمليّة التّواصل اللّغويّ وتكون مناسبة، تتوفّر فيها جميع الشّروط، دون أن تكون فعّالة، فلا تحقّق غايتها، وهذا يستلزم من المرسل أن يسعى إلى تحقيق مفهومي الكفاية التّواصليّة معا.

04-03- مكوّنات الكفاية التّواصليّة: يقسّم بعض الباحثين الكفاية التّواصليّة إلى أنواع متكاملة، وقد ارتأينا تقديم أشهرها، وهو تقسيم (مايكل كانال M.Canale) و(ميريل سوين M. Swain)[38]، حيث جعلاها أربع كفايات، تتّصل الأوليتان بالنّظام اللّغويّ، والأخريتان بالجوانب الوظيفيّة التّواصليّة"[39]، وهي:

04-03-01-الكفاية النّحويّة Grammatical Competence: وهي كفاية (تشومسكي) نفسُها التي أشرنا إليها سابقا. و"تشتمل على المعرفة بالوحدات المعجميّة، وقواعد الصّرف، والتّراكيب، ودلالة الجملة والأصوات؛ أي إنّها تعني السّيطرة على الرّمز اللّغويّ"[40].

04-03-02- كفاية تحليل الخطاب (Discourse Competence): تتمثّل في حسن اختيار وتنظيم الكلمات والعبارات والتّراكيب، وتعني قدرةَ أطراف التّواصل على تحليل أشكال الكلام، وفهم بنيته، وإدراك العلاقة بين عناصره وطرق التّعبير عن المعنى[41]، والقدرةَ على ربط الجمل لتكوين خطاب وتشكيل تراكيب ذات معنى، تشكلّ بدورها خطابا يكون متدرّجا من الحوار البسيط المنطوق إلى النّصوص الطّويلة المكتوبة[42]، وقد استَحدث هذا المفهوم (هنري ودّوْسن Henry Widdowson) عند محاولته تطبيق المقاربة التّواصليّة في تعليم اللّغات، وقد ركّز هذا التّوظيف على الاستعمال، وعلى مفهومي الاتّساق والتّماسك[43].

والواضح أنّ الكفاية النّحويّة تركّز على الجملة، في حين تركّز الكفاية الخطابيّة على ما بين الجمل من علاقات[44].

04-03-03- الكفاية اللّغوية الاجتماعيّة (Sociolinguistic Competence): وتعني القدرة على فهم السّياق الاجتماعيّ للتّواصل اللّغويّ والقدرة على تبادل المعلومات والمشاركة والتّفاعل مع الآخرين[45]؛ أي "معرفة

القواعد الاجتماعيّة والثّقافيّة للّغة وللخطاب"[46]. فهي إذًا متعلّقة بالتّواصلين اللّفظيّ وغير اللّفظيّ.

04-03-04- الكفاية الإستراتيجية (Strategic Competence):

تتعلّق هي الأخرى بجميع أشكال التّواصل اللّغويّ. وتعني ما يوظّفه المتواصلون من إستراتيجيّات لفظيّة وغير لفظيّة، للاحتفاظ بانتباه الآخرين، أو تحويلِ مسار التّواصل[47]، أوتعويضِ نقص أو خلل في متغيّرات الأداء، أوعدم توافر الكفاية فهي تساعدهم في حسن الابتداء والختام، وتعينهم في إصلاح تواصلهم، بشرح العبارات، أو بالدّوران حول المعنى، أو بالتّكرار، أو التّردّد، أو التّحاشي، أو التّخمين، أو تغيير اللّهجة والأسلوب[48].

ويستطيع الفرد أن يتقن المهارات اللّغويّة، ويتواصل بطريقة سليمة وناجحة عندما يدمج بين الكفايات السّابقة، دون أن يهمل الكفاية اللّغويّة؛ لأنّه إن فعل ذلك ترسّخت عادات لغويّة خاطئة، سيكون من الصّعب عليه تصويبها أو اقتلاعها.

5-خاتمة:

- تعدّ نظريّة التّواصل إحدى أبرز النّظرّيات التي تتقاطع فيها حقول معرفيّة متنوّعة؛ كعلم الاجتماع، وعلم النّفس، واللّسانيّات، والسّوسيولوجيا، والسّيميائيّة والإثنوغرافيا، والاقتصاد، والسّياسة، وعلم الأحياء...، وقد شكّل الحضور المتكاثف لهذه التّخصّصات داخل التّواصل -وهو يؤسّس لحقله المعرفي الخاص داخل فضاء العلوم الاجتماعيّة-أحدَ المداخل الأساسيّة للتّساؤل عن شرعيّته كعلم قائم بذاته[49]؛

-تناول نظريّةَ التّواصل عدّةُ مدارس فلسفيّة ونفسيّة واجتماعيّة ولسانيّة غربيّة، استفادت بعضها من بعض، تبنّاها علماء بارزون، نذكر منهم: (وارن ويفر وكلود شانون (Warren Weave&Claude Shannon)، و(فردناند

دي سوسير (Ferdinand de Saussure)، و(ليونارد بلومفيلد Leonard) (Bloomfield)، و(أندري مارتيني André Martinet)، و(رومان جاكبسون Roman Jakobson)، و(أفرام نعوم تشومسكي(Avram Noam Chomsky)، و(ديل هايمز Dell Hymes)... ولعلّ أهمّ الدّراسات المتعلّقة بالتّواصل اللّغويّ تلك التي قامت بها المدارس اللّسانيّة، والتي تمثّلت في اتّجاهين بارزين، تنضوي تحت كلّ منهما مدارسُ عدّة، هما: الاتّجاه البنويّ والاتّجاه التّداوليّ؛

–ارتباط التّواصل اللّغويّ بالإنسان الذي تحْتوشُه أحوال كثيرة عند تواصله يقتضي اتّجاها جديدا تتقاطع فيه مختلف العلوم التي تدرس الإنسان، هو الاتّجاه التّداوليّ؛

–اعتبر الكثيرون التّداوليّة والتّواصل توأمين، فالتّداوليّة إذًا، لم تكتفِ بالتّنظير، بل جاوزت ذلك إلى التّطّبيق، واستفاد منها مجال تعليم اللّغات، ممّا أسفر عن ميلاد مقاربات جديدة كالمقاربة التّواصليّة. وممّا يبيّن أنّ التّواصل جزء لا يتجّزأ من التّداولية، ما يعبّر عنه مصطلح التّداوليّة نفسُه من ضرورة وجود أطراف تتفاعل وتتحاور في ما بينها؛

–إنّ التّداوليّة تهتمّ بدراسة المعنى؛ أي محاولة معرفة ما يعنيه النّاس حين تواصلهم، لا ما تعنيه ألفاظ أو عبارات منفصلة عن سياقاتها. كما تهتم بتأثير السّياق في التّواصل، وتحديدِ عناصره الفاعلة، ومعرفةِ إستراتيجيّات الخطاب التي تستعملها أطراف التّواصل، ومحاولَةِ تحديد مقاصد المرسل، وتقديم الحلول النّاجعة للعوائق التي تعترض العمليّة التّواصليّة، بما يكفل استمرارها وحدوث التّفاعل والتّبادل، وتحقيق الفهم لدى المتلقّي؛

وهي "تصف وتفسّر استعمالاتِ المرسل المتنوّعة، بل وعدولَه عن بعض المعايير الثّابتة في مستويات اللّغة، ليجعل خطابَه مناسبا للسّياق الذي يتواصل

فيه"[50]، وتدرسُ التّأويلات التي يصوغها المرسل إليه، وما يصل إليه من معان غير ظاهرة، يحاول المرسل إيصالها، فهي إذًا تدرس أكثر ممّا يُقال، وممّا يظهر للوهلة الأولى في التّواصل بأشكاله المختلفة. ونشير هنا إلى أنّ التّداوليّة لا تقتصر على دراسة التّواصل اللّفظيّ، بل يدخل في اهتماماتها أيضا كلّ أشكال التّواصل غير اللّفظيّ.

6–<u>المصادر والمراجع:</u>

–أرمان ماتلار، ميشال ماتلار، تاريخ نظريّات الاتّصال، ترجمة وتحقيق: نصر الدّين لعياضي والصّادق رابح، ط01، بيروت، لبنان، المنظّمة العربيّة للتّرجمة 2005م.

–آن روبول وجاك موشلار، التّداوليّة اليوم؛ علم جديد في التّواصل، ترجمة: سيف الدّين دغفوس ومحمّد الشّيباني، ط01، بيروت، لبنان، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، 2003م.

–بوبكر جيلالي، الاختلاف والتّواصل والحوار والتّسامح "من سنن الكون وشروط توازنه"، مجلّة الكلمة، منتدى الكلمة للدّراسات والأبحاث، لبنان المجلد: 21، العدد 84، (30 يونيو/حزيران 2014م).

–تاعوينات عليّ، التّواصل والتّفاعل في الوسط المدرسيّ، الجزائر، المعهد الوطنيّ لتكوين مستخدمي التّربية وتحسين مستواهم، 2009م.

–جان ماري فيري، فلسفة التّواصل، ترجمة: عمر مهيبل، ط1، الجزائر، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، 2006م.

–حسن مصدق، النّظريّة النّقديّة التّواصليّة، ط01، الدّار البيضاء، المغرب المركز الثّقافيّ العربيّ، 2005م.

–دوجلاس براون، أسس تعليم اللّغة وتعليمها، ترجمة: عبده الرّاجحيّ، عليّ عليّ أحمد شعبان، ط01، بيروت، لبنان، دار النّهضة العربيّة، 1994م ص244.

–ربحي مصطفى عليان، محمد عبد الدبس، وسائل الاتصال وتكنولوجيا التعليم، ط02، عمّان، الأردن، دار صفاء للنشر والتوزيع، 2003م.

–رشدي طعيمة، المهارات اللّغويّة: مستوياتها، تدريسها، صعوبتها، ط01 القاهرة، مصر، دار الفكر العربيّ، 1425هـ/ 2005م.

-رضا الكشّو، من إشكاليّات القدرة التّواصليّة، مجلّة اللّسانيّات العربيّة، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدّوليّ لخدمة اللّغة العربيّة، الرّياض، السّعوديّة العدد: 03، جمادى الآخرة 1437هـ/ مارس 2016م.

-سعيد بنكراد، إستراتيجيّات التّواصل من اللّفظ إلى الإيماءة، مجلّة علامات المغرب، العدد: 21، 2004م.

-عبد العزيز شرف، نماذج الاتّصال في الفنون والإعلام والتّعليم وإدارة الأعمال، ط01، القاهرة، مصر، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، 2003م.

-عزّ الدّين البوشيخيّ، التّواصل اللّغويّ: مقاربة لسانيّة وظيفيّة، ط01، بيروت لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، 2012م.

-علاونة شفيق، سيكولوجيّة التّطوّر الإنسانيّ، دط، عمّان، الأردن، دار المسيرة، 2004م.

-عمر أوكان، اللّغة والخطاب، ط01، بيروت، لبنان، إفريقيا الشّرق، 2001م.

-فان دايك، النّصّ والسّياق: استقصاء البحث في الخطاب الدّلاليّ والتّداوليّ ترجمة: عبد القادر قنيني، دط، الدّار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، أفريقيا الشّرق، 2000م.

-فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ترجمة: سعيد علوش، ط01، بيروت لبنان، مركز الإنماء القوميّ، 1987م، مقدّمة المترجم.

-مسعود صحراويّ، التّداوليّة عند العلماء العرب: دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ، ط01، بيروت، لبنان، دار الطّليعة 2005م.

-ممدوح جابر شلبي، إبراهيم جابر المصري، حشمت رزق أسعد، منال أحمد الدسوقي، تقنيّات التّعليم وتطبيقاتها في المناهج، ط01، القاهرة، مصر، دار العلم والإيمان، 2018م.

–ميلود حبيبي، الاتّصال التّربويّ وتدريس الأدب، ط01، بيروت، لبنان، المركز الثّقافيّ العربيّ، 1993م.

7. هوامش:

[1]. عبد العزيز شرف، نماذج الاتّصال في الفنون والإعلام والتّعليم وإدارة الأعمال، ط01 القاهرة، مصر، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، 2003م، ص28.

[2]. بوبكر جيلالي، الاختلاف والتّواصل والحوار والتّسامح "من سنن الكون وشروط توازنه" مجلّة الكلمة، منتدى الكلمة للدّراسات والأبحاث، لبنان، المجلد: 21، العدد 84، (30 يونيو/حزيران 2014م)، ص79.

[3]. سعيد بنكراد، إستراتيجيّات التّواصل من اللّفظ إلى الإيماءة، مجلّة علامات، المغرب العدد: 21، 2004م، ص03.

[4]. محمّد كمال القاضي، الاتّصال: الأهمّيّة–الفاعليّة–المصداقيّة، دط، القاهرة، مصر المركز الإعلاميّ للشّرق الأوسط، 2002م، ص 23، 24.

[5]. القاضي، مرجع سابق، ص20.

[6]. جان ماري فيري، فلسفة التّواصل، ترجمة: عمر مهيبل، ط1، الجزائر، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، 2006م، ص19.

[7]. بوبكر جيلالي، مرجع سابق، ص60.

[8]. ينظر: ممدوح جابر شلبي، إبراهيم جابر المصري، حشمت رزق أسعد، منال أحمد الدسوقي، تقنيّات التّعليم وتطبيقاتها في المناهج، ط01، القاهرة، مصر، دار العلم والإيمان 2018م، ص87.

[9]. ربحي مصطفى عليان، محمد عبد الدبس، وسائل الاتصال وتكنولوجيا التعليم، ط02 عمّان، الأردن، دار صفاء للنشر والتوزيع، 2003م، ص25.

[10]. ينظر: علاونة شفيق، سيكولوجيّة التّطوّر الإنسانيّ، دط، عمّان، الأردن، دار المسيرة 2004م، ص66.

[11]. تاعوينات عليّ، التّواصل والتّفاعل في الوسط المدرسيّ، الجزائر، المعهد الوطنيّ لتكوين مستخدمي التّربية وتحسين مستواهم، 2009م، ص07.

[12]. عمر أوكان، اللّغة والخطاب، ط01، بيروت، لبنان، إفريقيا الشّرق، 2001م، ص36.

[13] أوكان، مرجع سابق، ص09.

[14] فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ترجمة سعيد علوش، ط01، بيروت، لبنان، مركز الإنماء القوميّ، 1987م، مقدّمة المترجم، ص07.

[15] المرجع نفسه، ص08.

[16] فان دايك، النّصّ والسّياق: استقصاء البحث في الخطاب الدّلاليّ والتّداوليّ، ترجمة: عبد القادر قنيني، دط، الدّار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، أفريقيا الشّرق، 2000م ص255.

[17] أرمينكو، مرجع سابق، ص08.

[18] ينظر: المرجع نفسه، ص05.

[19] أرمينكو، مرجع سابق، ص08.

[20] ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التّداوليّة اليوم؛ علم جديد في التّواصل، ترجمة: سيف الدّين دغفوس ومحمّد الشّيباني، ط01، بيروت، لبنان، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، 2003م ص29.

[21] فان دايك، مرجع سابق، ص255.

[22] ينظر: مسعود صحراويّ، التّداوليّة عند العلماء العرب: دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّسانيّ العربيّ، ط01، بيروت، لبنان، دار الطّليعة، 2005م، ص16.

[23] الشّهريّ، مرجع سابق، ص09.

[24] ينظر: الشّهريّ، مرجع سابق، ص11.

[25] أرمينكو، مرجع سابق، ص11.

[26] ينظر: الشّهريّ، مرجع سابق، ص10.

[27] ينظر: حسن مصدق، النّظريّة النّقديّة التّواصليّة، ط01، الدّار البيضاء، المغرب، المركز الثّقافيّ العربيّ، 2005م، ص128.

[28] دوجلاس براون، أسس تعليم اللّغة وتعليمها، ترجمة: عبده الرّاجحيّ، عليّ عليّ أحمد شعبان، ط01، بيروت، لبنان، دار النّهضة العربيّة، 1994م، ص244.

[29] رشدي طعيمة، المهارات اللّغويّة: مستوياتها، تدريسها، صعوبتها، ط01، القاهرة، مصر دار الفكر العربيّ، 1425هـ/ 2005م، ص 172.

[30] ميلود حبيبي، الاتّصال التّربويّ وتدريس الأدب، ط01، بيروت، لبنان، المركز الثّقافيّ العربيّ، 1993م، ص113.

[31] رضا الكشّو، من إشكاليّات القدرة التّواصليّة، مجلّة اللّسانيّات العربيّة، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدّوليّ لخدمة اللّغة العربيّة، الرّياض، السّعوديّة، العدد: 03، جمادى الآخرة 1437هـ/ مارس 2016م، ص198.

[32] طعيمة، مرجع سابق، ص172، 173.

[33] عزّ الدّين البوشيخيّ، التّواصل اللّغويّ: مقاربة لسانيّة وظيفيّة، ط01، بيروت، لبنان مكتبة لبنان ناشرون، 2012م، الهامش ص25.

[34] ينظر: طعيمة، مرجع سابق، ص 173.

[35] ينظر: دوجلاس، مرجع سابق، ص245.

[36] ينظر: طعيمة، مرجع سابق، ص 174.

[37] ينظر: طعيمة، مرجع سابق، ص173.

[38] ينظر: المرجع نفسه، ص174، و: دوجلاس، مرجع سابق، ص 245.

[39] دوجلاس، المرجع نفسه، ص245.

[40] المرجع نفسه، ص245.

[41] ينظر: طعيمة، مرجع سابق، ص174.

[42] ينظر: دوجلاس، مرجع سابق، ص245.

[43] ينظر: الكشّو، مرجع سابق، ص199.

[44] ينظر: دوجلاس، مرجع سابق، ص246

[45] ينظر: طعيمة، مرجع سابق، ص174.

[46] دوجلاس، مرجع سابق، 246.

[47] ينظر: طعيمة، مرجع سابق، ص174.

[48] ينظر: دوجلاس، المرجع السّابق، ص246.

[49] أرمان ماتلار، ميشال ماتلار، تاريخ نظريّات الاتّصال، ترجمة وتحقيق: نصر الدّين لعياضي والصّادق رابح، ط01، بيروت، لبنان، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، 2005م، ص19.